This article has been scanned by iThenticate No plagiarism detected

Volume 3, Issue 5, October 2021

p. 1-13

BURTON'S JOURNEY AND IBN BATTUTA'S JOURNEY: A COMPARATIVE STUDY

<http://dx.doi.org/10.47832/2757-5403.5-3.1>

Oumar Checkh OUSMAN¹

Abstract:

A person has been known to not reside on earth since he was on this modest, moving from one place to another, for various purposes, which may be in search of food or for fear of natural disasters, or out of love to travel. And the Muslim Arab travelers have a clear purpose from their trips, represented in the pilgrimage to the Sacred House of God and visiting the grave of the Prophet, may peace and blessings be upon him, and among them are those who came back through new roads and other countries, and some of them followed his path exploring worlds and regions different from their predecessors, as Ibn Battuta, Burton and others did. Each of them has taken the Holy Land as the focus of study and the place of the journey. This research topic was derived from the title: Burton's Journey and Ibn Battuta's Journey: A Comparative Study The topic is important in that it is a comparative process. As it is a reading of two books on one topic, travel literature by their two authors, which are considered one of the most important basic references known to the art of the journey among the Arabs. The limits of the study are represented in Burton's book entitled: "Burton's Journey to Egypt and the Hijaz" and Ibn Battuta's Journey: "A Masterpiece of the Principals in the Strange of Places and Wonders of Travel." This research aims to study two journeys in which it includes important aspects of Arab, Islamic and foreign life in its various aspects, whether it is political, social, religious, intellectual or literary, indicating aspects of agreement and difference between the two trips. The researcher also seeks to identify what distinguishes each trip from the other, in terms of the influence and influence between the two trips

Key words: Journey, Burton, Ibn Battuta, Egypt, Hijaz, Comparison.

Received :
27/07/2021

Accepted:
16/08/2021

Published:
01/10/2021

¹ Dr. , Maroua University, Cameroon, oumarcheickh@yahoo.fr, <https://orcid.org/0000-0002-7991-1880>

رحلة بيرتون ورحلة ابن بطوطة: دراسة مقارنة

عمر شيخ عثمان²

الملخص

عُرف الإنسان بعدم سكونه إلى الأرض منذ كان على هذه البسيطة، ينتقل من مكان إلى آخر، لأهداف مختلفة، قد تكون بحثاً عن الطعام أو خوفاً من الكوارث الطبيعية، أو حبا في الترحال. وللرحالة العرب المسلمين مقصدة واضحة من رحلاتهم، تتمثل في الحج إلى بيت الله الحرام وزيارة قبر النبي عليه الصلاة والسلام، وفيهم من عاد أدراجه عبر طرق جديدة وبلدان أخرى، ومنهم من تابع سبيله مستكشفاً عوالم ومناطق تختلف عن سابقاتها، كما فعل ابن بطوطة وبيرتون وغيرهما. واتخذ كل منهما الديار المقدسة محورا للدراسة ومحلا للرحلة. ومع ذلك اشْتُق موضوع هذا البحث الذي جاء بعنوان: رحلة بيرتون ورحلة ابن بطوطة: دراسة مقارنة. فلهذا الموضوع أهمية حيث أنه عملية مقارنة؛ إذ هو قراءة لكتابين في مجال واحد وهو أدب الرحلات لصاحبيهما اللذين يعدان من أهم المراجع الأساسية عرفه فن الرحلة عند العرب. تتمثل حدود الدراسة على كتاب رحلة بيرتون المعنون: "رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز" وكتاب رحلة ابن بطوطة: "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار". يهدف هذا البحث إلى دراسة رحلتين يشمل فيهما جوانب مهمة من جوانب الحياة العربية والإسلامية والأجنبية في مختلف نواحيها سواء كان سياسيا أو اجتماعيا أو دينيا أو فكريا أو أدبيا مبينا جوانب الاتفاق والاختلاف بين الرحلتين. كما يسعى الباحث إلى الوقوف على ما تمتاز كل رحلة عن أخرى بما يتمثل فيه جانب التأثير والتأثر بين الرحالتين.

الكلمات المفتاحية: رحلة، بيرتون، ابن بطوطة، مصر، حجاز، مقارنة.

المقدمة:

عُرف الإنسان بعدم سكونه إلى الأرض منذ كان على هذه البسيطة، ينتقل من مكان إلى آخر، لأهداف مختلفة، قد تكون بحثاً عن الطعام أو خوفاً من الكوارث الطبيعية، أو حبا في الترحال. وكثير من الرحلات قام أفراد أو جماعات في تاريخ البشرية الطويل، ولا نعرف عنها شيئا، ويرجع ذلك إلى عدم تدوينها. أما وقد تطور المجتمع الإنساني وعرف الرسم والكتابة صار يدون كل تحركاته رسما أو كتابة. ومنذ ذلك الحين ظهرت مصنفات وكتب تحكي رحلات الإنسان، وتبين الغرض منها حتى أصبحنا أمام جنس أدبي قائم بذاته، يجمع بين الأدب والتاريخ والجغرافيا.

وعرف أدب الرحلة طريقه عندما بدأ تدوين الرحلات في مخطوطات تسرد قصص الرحالة وما عاينوه وشاهدوه من عجائب وغرائب في البلدان التي زاروها واطلعوا على معالمها، أو صادفوه في طريقهم من مدن وقرى وتنوع طبيعي، أو عاشوه من لحظات مع أناس مختلفين عنهم لغة وثقافة وحضارة، وينقلوه إلى المتلقي ليشاركهم تلك اللحظات. وقد تنوعت مقاصدهم وغاياتهم بحسب أغراضهم. وللرحالة العرب المسلمين مقصدة واضحة من رحلاتهم، تتمثل في الحج إلى بيت الله الحرام وزيارة قبر النبي عليه الصلاة والسلام، وفيهم من عاد أدراجه عبر طرق جديدة وبلدان أخرى، ومنهم من تابع سبيله مستكشفاً عوالم ومناطق تختلف عن سابقاتها، كما فعل ابن بطوطة وبيرتون وغيرهما.

لذا تأتي رحلة بيرتون التي نحن بصدد دراستها؛ دراسة مقارنة مع رحلة ابن بطوطة فيما تختص كل رحلة عن الأخرى، لأن رحلة بيرتون إلى الديار المقدسة عبارة عن ذكر أحوال الحجاز والمنطقة الواقعة بينه وبين مسقط من كافة الوجوه، حيث وصف بيرتون المدينة المنورة، وعادات السكان، والحرم النبوي، وكان يستعين بآيات من القرآن الكريم، والحديث الشريف. ثم عرج على مكة ووصفها، ووصف مناسك الحج، كما أعطى ابن بطوطة في رحلته صورة واضحة للواقع الاجتماعي والجغرافي وأهم المشاهد التي صورها، حيث حوى الكتاب بين دفتيه طائفة هامة من المعلومات التاريخية

² د. ، جامعة ماروا، كامرون، oumarcheickh@yahoo.fr

وبعض النوادر الشعرية والأدبية؛ وذكر لأهم العروض عن بعض المناظرات والمباحثات التي كانت بينه وبين الشخصيات البارزة الذين مر بهم أثناء رحلته. وتكمن أهمية الموضوع في أنه عملية مقارنة؛ إذ هو قراءة لكتابين في موضوع واحد وهو أدب الرحلات لصاحبيهما اللذين يعدان من أهم المراجع الأساسية عرّفه فن الرحلة عند العرب. كما تأتي أهمية الموضوع أيضا أنه دراسة رحلتين يشمل فيهما جوانب مهمة من جوانب الحياة العربية والإسلامية والأجنبية في مختلف نواحيها سواء كان سياسيا أو اجتماعيا أو دينيا أو فكريا أو أدبيا مبيّنا جوانب الاتفاق والاختلاف بين الرحلتين. سيتناول الباحث في هذا العمل أولا الرحلة والمقارنة في الأدب العربي، ثم نبذة عن الرحلتين ورحلتهما وخاتما بعرض جوانب الاتفاق والاختلاف بين الرحلتين.

الرحلة في الأدب العربي

لا تزال كتب الرحلات قديما وحديثا تمثل معينا يهتم به الباحثون في العلوم الإنسانية عامة، نظرا لأنها ليست مجرد نصوص بها الطريف والغريب والمثير، بل فيها الكثير من الأبعاد الجغرافية والثقافية والأدبية والشعبية. وكتاب "تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار" لابن بطوطة أحد نصوص الرحلات التي أثارت منذ القديم وإلى عصرنا اهتماما كبيرا، نظرا له حالة فريدة في أسلوبه.

والأدب في المفهوم الحديث لا يقتصر على الشعر وفنون النثر والسرد، بل تجاوز هذا إلى «مختلف الفنون القولية والمكتوبة التي تعنى بقضايا الإنسان والحياة، فهو» علم يشمل أصول فن الكتابة، ويعنى بالآثار الخطبية والنثرية والشعرية، وهو المعبر عن حالة المجتمع البشري، والمبين بدقة وأمانة عن العواطف التي تعتمل في نفوس شعب أو جيل من الناس أو أهل حضارة من الحضارات». (جبور عبد النور، ط2، 1984م: 316)

جاء في قاموس المصطلحات اللغوية والأدبية: عربي-إنكليزي- فرنسي؛ تعريفا لأدب الرحلات يقول هذا التعريف: «أدب الرحلات هو نوع أدبي يقوم على وصف الأديب لما شاهده في رحلاته، من عمران، وأحداث، وأشخاص، وعادات، وتقاليده، وغيرها». (إميل يعقوب ويسام بركة ومي شيخاني، ط1، 1997م: 25)

ويلاحظ أن هذا التعريف يخرج من الرحلات كثيرا من الكتابات التي لم يكتبها أدباء، ويكون الجانب الأدبي فيها باهتا إن لم يكن منعما، ورغم ذلك تدرج هذه الكتابات ضمن الرحلات. وفي الأخير يبدو أن أدب الرحلة يعد حديث فني تسرد فيه ظواهر الرحلة الواقعية، موازنة بين الذات والموضوع، من خلال الشكل والمضمون، هدفها إفادة القارئ وامتناعه.

المقارنة في الأدب العربي

يعد الأدب المقارن منهجا نقديا مميزا، فهو يعتمد على المقارنة بين الأجناس الأدبية في اللغات المختلفة، على مستوى التأثير والتأثر والأفكار. وبالطبع فإن الحد الأدنى في المقارنة يكون جنسا أدبيا واحدا، بين لغتين مختلفتين. الأدب المقارن هو دراسة الأدب خلف حدود بلد معين ودراسة العلاقات بين الأدب ومجالات أخرى من المعرفة والاعتقاد مثل الفنون كالرسم والنحت والعمارة والموسيقى، والفلسفة، والتاريخ، والعلوم الاجتماعية كالسياسة والاقتصاد والاجتماع، والعلوم، والديانة، وغير ذلك. وباختصار هو مقارنة الأدب بمناطق أخرى من التعبير الإنساني.

ويلاحظ على هذه التعريف: أنه ينطلق من فكرة التأثير والتأثر ليتجاوزها إلى المشابهة أي أنه يركز على العلاقات ولا يجعلها شرطاً لازماً، وأنه يضيف بعداً جديداً إلى منطقة الأدب المقارن بدفعه إلى دراسة العلاقات بين الأدب وحقول المعرفة الأخرى ولاسيما الفنون. وبذلك يسجل نقطة إضافية شديدة الأهمية. وقد بدا رماك متساهلاً في موضوع صلة الأدب المقارن بالتدوق الأدبي، ولكنه بالنتيجة احتفظ بجوهر منطق الأدب المقارن وهو دراسة الأدب خارج حدوده الجغرافية واللغوية والمعرفية. وتبدو نظرية رماك أكثر قبولاً اليوم في العالم.

وعن آراء المقارنين عن مفهوم أدب المقارن، لاحظ الباحث أن آراء الأوروبيين وتحديداتهم تختلف لدائرة اهتمام تخصص الأدب المقارن، ففي الوقت الذي يرى فيه «فان تيجم» وهو أحد رواد المدرسة الفرنسية للأدب المقارن أنه "دراسة آثار الآداب المختلفة من ناحية علاقاتها بعضها ببعض. (فان تيجم، د ت: 62)

فإن «جويار» الذي ينتمي للمدرسة الفرنسية ذاتها والذي افاد من سلفه «فان تيجم» يعرف الأدب المقارن على أنه "تاريخ العلاقات الأدبية الدولية فالباحث المقارن يقف عند الحدود اللغوية والقومية، ويراقب مبادلات الموضوعات والكتب والعواطف بين اديبين او عدة آداب». (فرانسوا جويار، 1956م: 5)

ويتأكد لنا انتماء الدكتور محمد غنيمي هلال الى المدرسة الفرنسية من خلال توكيده على الجذر التاريخي للأدب المقارن وعبر تعريفه له بأنه «ذو مدلول تاريخي، ذلك انه يدرس مواطن التلاقي بين الآداب في لغاتها المختلفة وصلاتها الكثيرة

المعقدة في حاضرها أو في ماضيها، وما لهذه الصلات التاريخية من تأثير أو تأثير أياً كانت مظاهر ذلك التأثير أو التأثير» (غني، 1981م: 9)

التعريف بالرحالة برتون ورحلته

مولد برتون، نشأته ووفاته:

ولد بيرتون عام ١٨٢١ للميلاد في مدينة توركي بجنوب بريطاني، لأب عسكري لم يوفق كثيراً في عمله، ومنذ نشأته بذر فيه والده بذرة الترحال والتجوال إذ أرسله إلى إيطاليا، التي تعلم لغتها وعاش فيها قسماً من طفولته، وسعود إليها ليلقى بها حتفه بعد عشرات من السنوات.

بعد أن فرغ من تعليمه الأولي، التحق بجامعة أكسفورد، التي كانت -ولا تزال- من بين جامعات القمة في بريطانيا والعالم ككل، لم يكن بيرتون منضبطاً كما يجب، ففصل من الجامعة، وكان ذلك الفصل بداية فصل جديد من حياته الحافلة بالمغامرات والتضاريس الحادة! وعن مؤلفات برتون؛ أنه كتب عدداً كبيراً من المؤلفات. ومن بين الـ 30 مجلد التي كتبها كان هنالك مجلدات على أبيديات فن الحب عن الشرقيين وأهم ترجماته هي حكايات ألف ليلة وليلة.

مع ذلك المزيج العجيب الذي اجتمع في شخصية بيرتون، من حب للتجوال، وحب للاستكشاف، وشغف بتعلم اللغات، وجلي على المشاق، كان الالتحاق بالجيش البريطاني فرصة جيدة لحياة ثرية! كانت بريطانيا في تلك الأيام دولة عظيمة تحتل بلاداً كثيرة تعي من يريد إحصاءها، وكان من نصيب بيرتون العمل ضابطاً في الاستخبارات البريطانية بالهند.

تقدم بيرتون في عام 1268هـ/1852م إلى الجمعية الجغرافية الملكية في لندن بطلب لإرساله إلى شبه الجزيرة العربية ليستكشف دروبها ويقطعها من مسقط إلى الحجاز، وبالفعل وافقت الجمعية على طلب، ولعل من أهم الأسباب الموافقة علمها بأن بيرتون نشر كتابين أحدهما عن جولاته في بلاد الهند، والآخر عن رحلته إلى جاوة، ووافقت حكومة شركة الهند البريطانية شريطة أن تكون مدة رحلته سنة واحدة وهي كافية بنظرها. (عبد الغني، 1880م: 21)

طرد بيرتون من جامعة أكسفورد عام 1842، فانتقل إلى الهند بصفة ملازم أول في الجيش وهناك أخذ مظهر المسلمين وقام بكتابة تقارير عن السوق والتجار، ثم انتقل إلى بلاد العرب وهناك استخدم نفس المظهر الإسلامي وكان ثاني شخص غير مسلم يحج المدينة ومكة في عام 1855م.

وفاته

توفي بيرتون في 20 أكتوبر 1890 في النمسا، وبسبب ملاحظاته العرقية فقد أصبح لديه الكثير من الأعداء. بعد وفاته قامت زوجته، إيزابيل بورتون، الكاثوليكية المخلصة، بحرق نتائج 40 سنة.

كتاب رحلة بيرتون

لقد قام برتون برحلته لمصر في غضون سنة 1835م، وذلك في أواخر عهد عباس باشا الأول ولا يخفى أن مصر كان يومئذ تمر بمرحلة انتقال خطيرة. لقد فرضت الدول الأوروبية على محمد علي إلغاء سياسة الاحتكار. تنكر في Pathān، وهو مسلم أفغانستان، في عام 1853 ذهب إلى القاهرة والسويس والمدينة المنورة، ثم سافر الطريق التي تعصف بها قطاع الطرق إلى مدينة مكة المكرمة المقدسة، حيث في خطر كبير انه قياس ورسم المسجد والضريح الإسلامي المقدس، والكعبة. على الرغم من أنه لم يكن أول غير مسلم يخترق ويصف "أم المدن"، إلا أن بيرتون كان الأكثر تطورا والأكثر دقة. لم يكن حجه إلى المدينة المنورة ومكة المكرمة (1855-1856) سرداً مغامراً عظيماً فحسب، بل كان أيضاً تعليقاً كلاسيكياً على حياة المسلمين وأخلاقهم، وخاصة في الحج السنوي. بدلاً من العودة إلى لندن للاستمتاع بشهرته المفاجئة، ومع ذلك، نظم بعثة جديدة في عام 1854 إلى مدينة حرير (هارير) المحرمة بنفس القدر في شرق أفريقيا وأصبح أول أوروبي يدخل هذه القلعة الإسلامية دون إعدامه. وصف مغامراته في الخطى الأولى في شرق أفريقيا (1856).

بحلول هذا الوقت أصبح بيرتون مفتوناً بفكرة اكتشاف مصدر النيل الأبيض وفي عام 1855 خطط لبعثة مع ثلاثة ضباط من شركة الهند الشرقية البريطانية، بما في ذلك جون هانينغ سبيك، يعتمرون الدفع عبر أرض الصومال. إلا أن الأفارقة هاجموا الحزب بالقرب من بربرة، مما أسفر عن مقتل أحد أعضاء الحزب وإصابة سبيك بجروح خطيرة. في عام 1857 قاد برتون حملة مع جون هاننغ سبيك لمعرفة مصدر نهر النيل ولكنه ابتلي بالمalaria وكان أول أوربي يصل إلى بحيرة تنجانيقا. رحلاته المتنوعة شملت 43 موضوع ودراسة مثل المورمون، شعب غرب أفريقيا، الأراضي المرتفعة البرازيلية، آيسلندا. وقد تعلم 29 لغة وعدد كبير من اللهجات.

في 1860 ذهب بيرتون قبالة بشكل غير متوقع إلى الولايات المتحدة، حيث سافر بواسطة stagecoach إلى عاصمة المورمون، سولت لايك سيتي. أظهر المجلد الناتج، مدينة القديسين (1861)، أنه يمكن أن يكتب بتطور حول طبيعة كنيسة المورمون، ويؤلف صورة حية لزعيمها، بريغهام يونغ، ويكون أيضاً محايداً حول ممارسة المورمون لتعدد الزوجات، والتي كانت آنذاك تغضب معظم الأميركيين. بعد وقت قصير من عودته من الولايات المتحدة، في يناير 1861، تزوج هو وإيزابيل أرونديل، ابنة عائلة أرستقراطية، كان يتودد إليها منذ عام 1856، سرا. أخيراً هذا الكتاب تم ترجمته وتعليقه على يد دكتور عبد الله الشيخ سنة 1994م. وقد تناول بيرتون سرد رحلته إلى الإسكندرية من صفحة 7-15 ومن 15-29 مغادرة الإسكندرية؛ ومنه إلى السفينة النيلية التجارية 38، ومنه إلى صفحة (49) الحياة في الوكالة، وعن وصف الرحلة شهر رمضان (ص71)، ثم عن المسجد صفحة (85) وعن الاستعداد لمغادرة القاهرة صفحة (101). لم يزل يواصل رحلته من القاهرة إلى السويس (ص135)، ومنه لسفينة الحج (ص153)، ثم إلى ينبو والتوقف فيه (ص185)، كذلك من ينبو إلى بير عباس ومن إلى المدينة المنورة (ص215).

التعريف بالرحالة ابن بطوطة ورحلته

تتوالى الرحلات عبر العصور فتأتي رحلات كل من المسعودي¹ صاحب كتاب "مروج الذهب"، والمقدسي² صاحب "أحسن التقاسيم ومعرفة الأقاليم"، والإدريسي³ الأندلسي في "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق"، هذا بالإضافة إلى رحلة المؤرخ عبد اللطيف البغدادي. إذا تجاوزنا هؤلاء الأعلام المذكورين، نصل إلى إمام الرحالة في عالم العربي الإسلامي بلا منازع ابن بطوطة، وهو أعظم رحالة المسلمين الذي يتميز برحلته كما هو معلوم بمعرفة المزيد من المعلومات، وهو يتحدث عن مراحل تنقلاته وعن مشاعره، مما يرتضيه ولا يرتضيه، هذا إلى تعرفنا على الجهات التي يمر بها جغرافياً وبشرياً وفكرياً، فنشعر بنوع من التجديد في الفائدة، بنوع من تمكن الكاتب من التعبير عما يريد أن يؤديه، بأسلوبه الذي يتغلب به على كل الصعاب، والذي يجعله مهيمناً على إبلاغ الناس ما يريد إبلاغه من وصف للطبيعة وتقديم للظواهر التي تحف بمحيطه والبيئة التي يعيشها (التازي: 4: 1997م: 140)

بعد هذا التمهيد المختصر عن أدب الرحلة وعن بعض مشاهير الرحالة في العالم العربي والإسلامي، ننتقل إلى نقطة أخرى لنعرف ابن بطوطة من حيث مولده ونشأته وحياته العلمية وما يتصل بذلك من أمور.

مولد ابن بطوطة، نشأته ووفاته

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن يوسف اللواتي الطنجي الملقب في المشرق بشمس الدين والمكّي بأبي أحمد لوجود ولد له يحمل هذا الاسم، ومعلوم أن (لواتة) قبيلة واسعة الانتشار في مصر يؤكد المقرئ أنها عربية. وعاش ما بين 779 - 703 هـ الموافق 1304 - 1377 م في عائلة من علماء القضاء بمدينة طنجة بالمغرب، خلال عهد الدولة المرينية.

ولد عبد الله ابن بطوطة بطنجة يوم الاثنين 17 رجب 703 هـ الموافق 24 فبراير 1304م بالمغرب الأقصى من أسرة تنتمي إلى قبيلة مشهورة اللواتة، وهي عربية الأصل وقديمة الوجود في بلاد العربية. (الزركلي، 6/ 2002م: 236) نشأ في طنجة، واشتهر بـ "ابن بطوطة"، يُنسب إلى قبيلة "لواتة" البربرية، التي انتشرت بطونها على طول سواحل إفريقيا حتى مصر، وينحدر من أسرة عالية، تقلد العديد من أبنائها منصب القضاء؛ وذلك لنبوغهم في العلوم الشرعية، وكان أبوه فقيهاً يشغل بالقضاء، وعمل على إعداد ولده ليكون خلفاً له؛ فقام على تحفيظ ابن بطوطة القرآن الكريم منذ نعومة أظفاره، ودرّس له العلوم الشرعية، كما قام بتعليمه الأدب والشعر، فشبّ ابن بطوطة محباً للعلم والعلماء، ولكن لم يُتِمَّ ابن بطوطة دراسته للفقهاء بسبب رغبته في السفر والترحال؛ فكان خروجه إلى الحج، وهو في الثانية والعشرين من عمره، نقطة تحول فارقة في حياة ابن بطوطة، إذ ارتدى منذ ذلك الحين ثوب الترحال وأخذ يجرأ أرجاء العالم الإسلامي من بلدٍ لآخر. (ابن بطوطة، 1987م: 14)

لقد أنهى ابن بطوطة بالتعاون مع ابن جزي من إنهاء كتابة الرحلة في 3 ذي الحجة 756 هـ، توفي عام "777 هـ/ 1375م"، ومن يزور المغرب اليوم سيد بمدينة طنجة طريقاً باسم ابن بطوطة حيث كان يعيش، وسيد بالقرب من سوق طنجة ضريحه الذي دفن فيه. (ابن بطوطة، 1987م: 22)

وقيل مات ابن بطوطة في مراكش، وتلقبه جمعية كمبرج في كتبها وأطالسها بأمر الرحالين المسلمين Prince of moslems travellers وفي نابلس (بفلسطين) أسرة، الآن، تدعى (بيت بطوط) وتعرف ببيت المغربي وبيت كمال، تقول إنها من نسل ابن بطوطة. (الزركلي، 2002/6: 236)

كتاب رحلة ابن بطوطة

بدأت رحلته عام "725 هـ" من طنجة بالمغرب إلى مكة المكرمة، وظل بها زهاء تسعة وعشرون عامًا يرحل من بلدٍ إلى آخر، ثم عاد في النهاية إلى المغرب ليملي مشاهداته على الأديب محمد بن جزى الكلبي⁵. كان ذلك بتكليفٍ من ابن عنان الفارسي⁶ سلطان المغرب، وسمّى ابن بطوطة رحلته "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"، وروى ابن بطوطة مشاهداته لبلدان زارها، فصوّر لنا الكثير من عادات وتقاليده في المجتمعات المختلفة، فقدم لنا خلال رحلته هذه في عمومها صورةً شاملةً دقيقةً للعالم الإسلامي خلال القرن الثامن الهجري، مبرزًا فيها جوانب مشرقة للحضارة الإسلامية وشعوبها المختلفة، بما لا نجده في المصادر التاريخية التقليدية عند غيره من الكتّاب. " (ابن بطوطة، 1987م: 13)

بما يخص رحلة ابن بطوطة، إنه خرج من طنجة سنة 725 هـ فطاف بلاد المغرب ومصر والشام والحجاز والعراق وفارس واليمن والبحرين وتركستان وما وراء النهر وبعض الهند والصين والجاوة وبلاد التتر وأواسط إفريقية. واتصل بكثير من الملوك والأمراء، فمدحهم وكان ينظم الشعر واستعان بهباتهم على أسفاره. وعاد إلى المغرب الأقصى، فانقطع إلى السلطان أبي عنان (من ملوك بني مرين) فأقام في بلاده. وأملى أخبار رحلته على (محمد ابن جزى) الكلبي بمدينة فاس سنة 756 هـ وسماها (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) ترجمت إلى اللغات البرتغالية والفرنسية والإنكليزية، ونشرت بها، وترجمت فصول منها إلى الألمانية. واستغرقت رحلته 27 سنة (1325 – 1352م)، وتركزت تلك الرحلة في هذه المدة على ثلاثة رحلات التي سيفصل الباحث القول في التالي.

ترك ابن بطوطة طنجة سنة 1325م ولم يتجاوز الثانية والعشرين من عمره قاصدا مكة، غير أن هذه الرحلة إلى الحج انقلبت إلى جولة استغرقت أربعًا وعشرين سنة شملت أفريقيا الشمالية وآسيا وتعرف خلالها على أهم عواصم العالم القديم وحج اثنتاهما ست مرات، وقد كانت هذه أهم رحلاته إذ فيها وصل إلى الصين والهند وفيها ولي القضاء مرتين مرة في دلهي ومرة في ذبية المهل، وكان ابن بطوطة ينوي زيارة الهند عن طريق اليمن غير أنه لم يجد المركب والرفيق فذهب إلى مصر ومنها إلى العلاء ليسلك طريق البر. (ابن بطوطة، 1987م: 16)

أما رحلته الثانية فابتدأت من فاس 1350م، واستمرت سنة واحدة وكانت غاية ابن بطوطة أن يجاهد ويرابط ضد الفونس 11 (Alphonse 11) ملك الدولة المسيحية بقشتالة وكانت دولته أخذت تنمو نموا مطردا على حساب الدولة الإسلامية في غرناطة. لكن ابن بطوطة لم يلبث أن أصبح متجولا كعادته فلم يبق طويلا ليجاهد ويرابط ولم يخض معركة وإنما أخذ ينتقل من بلد إلى بلد ليصفها وصف السائح في السفر. لما رجع إلى فاس لم يبق الا فترة ليوالي سفره في أفريقيا السوداء. (ابن بطوطة، 1987م: 17)

وأما عن رحلته الثالثة والأخيرة فابتدأت من فاس في سنة 1352م، وتعتبر من أهم الرحلات نظرا لكون ابن بطوطة من القلائد الذين غامروا في ذلك الصقع النائي، والغالب أن أبا عنان أرسل ابن بطوطة إلى هذه الناحية ليتصل بملوكها وأمرائها ويحيى العلاقات التجارية والسياسية معها وقد كان أبو الحسن وأصل ملك مالي منسي بن موسى⁷. ثم رجع عن يودا إلى سجماسة فدار الطمع ففاس. (ابن بطوطة، 1987م: 20)

قيل إن رحلة ابن بطوطة لها مكان في مجال أدب الرحلات، بل فاقت كثير ما كُتب في هذا المجال حيث أشار البيلوني في في ديباجة (المنتقى) إلى أصالة رحلة لابن بطوطة، ووصف بأنها "قطب" لجميع الرحلات! قائلا:

حيث أبصرت رحلة لإمام فهي ذيل لرحلة ابن بطوطة
إنما الكون دارة، وهي قطب بجميع الجهات منه منوطة
جعل الله روحه في رياض حيثما ينسج الغمام خيوطه
(البيلوني، 1968م: 9-10)

أخيرا أقام ابن بطوطة بعد رحلاته الثلاث في حاشية الملك أبي عنان فارس المريني يُحدث الناس بما رآه من عجائب وما سمعه من غرائب، فالتف الناس من حوله وأعجبوا كثيرا بما يقول، فأجزل السلطان له العطاء ودعاه إلى إملاء ما شاهده على كاتبه محمد بن جزى الكلبي، فأملى ابن بطوطة عن ظهر قلب كل ما تذكره من أسماء الأعلام والمدن خلال رحلاته

وجولاته بالبلاد المختلفة، فقد سلب الهنود من ابن بطوطة في بعض جولاته في الهند كل ما قد دونه في مذكراته، وقد سمى ابن بطوطة مجموعة أخباره: "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"؛ وهي تُعرف اليوم بـ"رحلات ابن بطوطة". (ابن بطوطة، 1987م: 20)

فالكاتب الذي نحن بصدد دراسته جاء بعنوان: رحلة ابن بطوطة الذي اشتهر بـ«تحفة النظار في غرائب المصار وعجائب الأسفار». قدم له وحققه الشيخ محمد عبد المنعم العرياني، تحت مراجعة وإعداد فهارسه الأستاذ مصطفى القصاص. نشر هذه الطبعة الأولى في بيروت بدار إحياء العلوم سنة 1407هـ الموافق 1987م في لبنان.

هذا الكتاب يضم ثمان مئة صفحة إلا واحدة حيث أعلن المحقق المسمى أعلاه مقدمة ذات بهجة وتقرير للكتاب، ثم شرع في سرد نبذة مختصرة عن ابن بطوطة وابن جزي مع عرض تحليل ابن خلدون على رحلة ابن بطوطة. صعب بالمكان أن يفصل الباحث بين الموضوعات الأساسية والموضوعات الفرعية بالدراسة؛ لأن العناوين مختلطة وغير معدودة، لا من الفصول والمباحث كما يشترط الكتابة العلمية ولا من الأبواب والمطالب. لكن الباحث سيبدل قصارى جهده في استخراجها ممثلاً، مرتباً ومشيراً إلى صفحات المعينة التي تتناول تلك الموضوعات الأساسية والفرعية بالتحديد.

من ذلك مقدمة ابن جزي لرحلة ابن بطوطة التي تقدمت ما بين صفحة (29-32)؛ وبالتالي الرحلة إلى الحج ومشاهداته في السفر من طنجة إلى بلاد المقدسة كعنوان أساسي الذي يحتوي ذكر قصص وحكايات... (33-123)؛ ثم الوصول ببلاد الحرمين من زيارة مسجد النبوي وروضته الشريفة بمدينة المنورة وذكر مناسك الحج من الكعبة الشريفة وذكر زمزم بمكة المكرمة وما شاهد من عادات وتقاليد أهلها... (124-190)؛ ويتركز بقية الكتاب على ذكر المدن التي تنفرع منها ذكر سلاطينها وأمرائها وملوكها وحوادث التي شاهدها ابن بطوطة من قصص وحكايات وعجائب الواردة في تلك الرحلة. (191-711)؛ ثم تمثلت خاتمة ابن جزي للكتاب من (715-719) وبعد، عرض فهارس الأعلام والمدن والقرى والأنهار والبحار والجبال والصحاري والحصون والمحتويات. (719-799)

دراسة المقارنة بين الرحلتين

طلع الباحث بما يخص هذا البحث أن الرحلتين (برتون وابن بطوطة) قد زارا بلدانا كثيرة؛ وعاشا بحياة اجتماعية مختلفة، وشاهدا في ذلك عادات شعوب كثيرة. وبما يخص هذا العمل المقارن، خصص الباحث دراسته عن مصر والإسكندرية، ثم الحرمين الشريفين وما فيهما الكعبة والمسجد النبوي الشريف وضريحه. ولم يكنف الباحث بذلك فقط، إنما تناول زيادة على ذلك وصف الأماكن والحياة السياسية والدينية وغيرها.

في مصر

وأما عن مصر زار بيرتون وابن بطوطة هذا البلد التاريخي، واطلع كل واحد منهما على أشياء تختلف أنواعها، عمرانها، اجتماعيا أو دينيا أو غيرها. ووقع ذلك لهما في فطرة زمنية مختلفة، حيث أن زيارة ابن بطوطة لمصر أقدم من زيارة الرحالة برتون؛ كما أنهما لم ينتسبا لدين واحد وقبيلة واحدة.

فالرحالة بيرتون إيرلندي استخدم أكثر اللغة الإنجليزية. فأما ابن بطوطة عربي طنجي من رحالة المسلمين. ويستخدم اللغة العربية وسيلة لنقل معلوماته الرحلية ولغته الأصلية. وعن رحلة الرحالة ريتشارد بيرتون فزار الأيرلندي مصر في غضون سنة 1853 أي في أواخر عهد عباس باشا (1848-1854). وتتناول رحلة بيرتون عن أحوال مصر الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بل والسياسية في منتصف القرن التاسع عشر وكانت مصر يومئذ تمر بمرحلة انتقال خطيرة كان لها أبعادها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

يصف بيرتون وصوله إلى مصر عن طريق الإسكندرية ثم إقامته في القاهرة والاحتفال بشهر رمضان هناك. وبما يخص الحياة الاجتماعية لمصر ذكر بيرتون عن الفلاح: "كان من النتائج الجانبية لإلغاء سياسة الاحتكار التوسع في ملكية الأرض الزراعية، فعرف الفلاح حقه في زراعة ما يشاء وحقه ألا يضرب، لكن بيرتون لاحظ أن الفلاح كان يعيى حقوقه ولكن الحميرة القديمة على حد تعبير برتون... إن الرقيق في مصر والشرق يعيش حياة أفضل كثيرا من حياة الفلاح المصري". (برتون، 1994م: 7)

ثم واصل بيرتون في ذكره لأحوال الاجتماعية قائلا: "أكثر محمد علي باشا من استخدام الرقيق واستهان بهم في شتى جوانب من بينها الجيش وفشل في ذلك رغم أن الرقيق قد منع رسميا بعد ذلك إلا أن بيرتون يحدثننا عن تجارة الرقيق في القاهرة... أن أوروبا تضخم هذا الموضوع، فالرقيق في الشرق يحظى بمعاملة كريمة لأن الشريعة الإسلامية تحس على

ذلك، ولأن مالك الرقيق أكثر ما يكون حرصا عليه لأنه يعتبره ملكا له إلى أن لاحظ بيرتون أن الشعب المصري تنادي (بحركة الجهاد) ضد روسيا". (برتون، 1994م: 8-9)

يقول بيرتون عن عادات الشعوب في مصر: "في مصر والشرق يفضل كثيرون استخدام السكين والنبوت للحصول على حقوقهم للبدء الشديد في إجراءات التقاضي. وكثرة حيله". (المرجع السابق)

وأما عن وصف ابن بطوطة الحياة الاجتماعية في مصر، تناول المظاهر في العادات والأسواق وما يتعلق بالأنشطة الاجتماعية كالزواج والأعياد والزوايا التي شاهد ما فيها وسجلها بدقة الملاحظة.

جذب انتباه ابن بطوطة بمصر المظاهر الاجتماعية المتنوعة، فوصف الزوايا وما فيها من خدام وأوقات عبادات كقراءة القرآن الكريم والذكر في الجماعة بعد كل صلاة العصر، وترتيب أكل أهل الزاوية مع ذكر شروط المكث في تلك الزوايا، وتحدث أيضا عن الشيوخ الذين كانوا على رأس كل زاوية، وتعجب عما رأى من ترتيب عمورهم وقال: "ترتيب عمورهم عجيب" حيث وضع نظام في أكلهم وكسوتهم في نوعين للشتاء والصيف، والdrahem للراتب الشهري.

ويقول في ذلك: «الأمراء بمصر يتنافسون في بناء الزوايا وكل زاوية بمصر معينة لطائفة من الفقهاء، وأكثرهم الأعاجم. وهم أهل أدب ومعرفة بطريقة التصوف. ولكل زاوية شيخ وحارس، وترتيب أمورهم عجيب (...) ومن عوائدهم أن يجلس كل واحد منهم على سجادة مختصة به. وإذا صلوا صلاة الصبح قرأوا سورة الفتح، وسورة الملك، وسورة عم، ثم يؤتى بنسخ من القرآن العظيم مجزأة، فيأخذ كل فقير جزءا، ويختمون القرآن، ويذكرون، ثم يقرأ القراء على عادة أهل المشرق. ومثل ذلك يفعلون بعد صلاة العصر». (ابن بطوطة، ط1987/1م: 57)

ويواصل الرحالة يصف حال يوم العيد: «ويجتمع لذلك أصناف الناس من رجال ونساء، ثم يطوفون بالمحمل وجميع من ذكرنا معه بمدينة القاهرة ومصر، والحدادة يحدون أمامهم، ويكون ذلك في رجب فعند ذلك تهيج العزيمات، وتنبعث الأشواق، وتتحرك البواعيث، ويلقي الله تعالى العزيمة على الحج في قلب من يشاء من عباده، فيأخذون في التأهب لذلك والاستعداد». (ابن بطوطة، ط1987/1م: 65)

هذا وصف بديع لابن بطوطة في مصر التي اكتفى بها في شمال إفريقيا لاستخراج المظاهر الاجتماعية. سجل معلومات كثيرة وناصرة ثم تحدث عن الزوايا وما فيها من الأمور العجيبة، وذلك بأسلوبه المؤثر مع جمال العرض وخيال حاصر.

أخيرا يظهر للباحث أن الرحالتين كلاهما اتفقا لزيارة مصر واختلفا في فطرة الزمنية حيث زار ابن بطوطة مصر قبل بيرتون. ووصف كلاهما الحياة الاجتماعية التي تعيشها مصر في وقت زيارتهما لها. ثم اختلفا عن تناول الموضوعات الاجتماعية؛ إذ أنهما على دين مختلف مما جعل اهتمامهما مختلفة حيث تمثل أفكار بيرتون في ذكر حقوق الفلاح ومكانته في المجتمع المصري، وكذلك مكانة الرقيق وعادات الشعوب المصرية. لكن طرأ ابن بطوطة وصف الزوايا ويوم العيد لما فيها من تقارب ديني إذ أنه رحالة عربي المسلم.

ثم تنتقل إلى جانب سياسي بدء بما ذكر بيرتون في رحلته عن القضاء في تلك الفترة: "ففي سنة 1824 أنشأ محمد علي هيئة قضائية عرفت بجمعية الحقانية لمحكمة كبار الموظفين كما أنشأ مجلس التجارة وكان بمثابة محكمة التجارية لفض النزاع بين المصريين والأجانب..." (برتون، 1994م: 9)

زيادة على ما ذكر الرحالة بيرتون، تحدث عن سياسة غريبة تتبعها أهل مصر وهو الفقفا حيث مثله بأن المصري إذا تعامل مع القواس أي ضابط الشرطة أو دخل مركز الشرطة لأي أمر كان قابلا أن يعطيه المسؤول قفا أي يضربه على قفاه.

تناول الرحالة ابن بطوطة أيضا من ضمن كتابه تحفة النظار الجانب السياسي لمصر، حيث ذكر تعلق أحكامهم بالشرعية الإسلامية. وتبين للباحث أن معظم أحوال الأمراء بمصر وسياساتهم تعتمد على دين الإسلام، حيث ذكر ابن بطوطة عن محاسنهم كما قال: " وكل هؤلاء يتنافسون في أفعال الخيرات وبناء المساجد والزوايا". وهم خمسة أمراء على من سبق ذكرهم، وقال: «منهم وزير الملك الناصر يعرف بالجمالي... وكل هؤلاء يتنافسون في أفعال الخيرات وبناء المساجد والزوايا. ومنهم ناظر جيش الملك الناصر وكتابه فخر الدين القبطي، وكان نصرانيا من القبط، فأسلم وحسن إسلامه، وله المكارم العظيمة والفضائل التامة ودرجته من أعلى الدرجات عند الملك الناصر، وله الصدقات الكثيرة والإحسان الجزيل». (ابن بطوطة، ط1987/1م: 62)

فملاحظتنا في هذا الجانب السياسي، حاول الرحالتان إبراز ما شاهدا في سياسة أهل مصر، حيث ذكر بيرتون عن الجمعية الحقانية لمحكمة كبار الموظفين ومحكمة التجارية مع الحديث عن سياسة ضرب القفا. وهذا ما اكتفى به

الباحث، وأما عن الرحالة ابن بطوطة فيما يخص هذا الموضوع فرسم وصفه العجيب لما سجله من أخلاق حسنة وأفعال حميدة وسياسات دينية لسلطان مصر وبعض أمراءها التي يتطور بها المجتمع المصري كبناء المساجد والزوايا للتعليم والعبادة.

وتطرق بيرتون الجانب الديني في تناوله مصر بالوصف حيث تمثل ذلك في عهد محمد علي على تحجب نساء المدن إلى أواخر عهد محمد علي تدفق الأجانب إلى مصر حيث قال برتون: "مع هذا كانت كل نسوة محجبات حتى عهد عباس الأول بما في ذلك غير المسلمات..." (بيرتون، 1994م: 10)

وزاد لناحية دينية الفرق بين علماء الأزهر والدرأويش، وقد قيل كان من الطبيعي بعد اختلاف محمد علي مع الزعمات الشعبية وأبعاد عمر مكرم، أن يتضاءل دور الأزهر ومضت فترة ليس بالقليلة قبل أن يستعيد دوره... عندما زاره برتون فوجد مكتباته خاوية ورجاله بؤساء ومقرراته مزيلة. (بيرتون، 1994م: 11)

وبتمثل الجانب الديني لمصر عند ابن بطوطة لما وصف فخر الدين القبطي، الذي أسلم وتمسك بدين الإسلام، وحاز أعلى درجة عند الملك الناصر. وصفه ابن بطوطة هو كثير العبادة والعدالة ومحبوب الأمة، وأشار الرحالة إلى بيان عاداته قائلا: «ومن عادته أن يجلس عشي النهار في مجلس له بأسطوان داره على النيل ويليهِ المسجد، فإذا حضر المغرب صلى في المسجد وعاد إلى مجلسه وأوتي بالطعام. ولا يمنع حينئذ أحد من الدخول كائنا من كان. فمن كان ذا حاجة تكلم فيها ففضاها له ومن كان طالب صدقة أمر مملوكا له يدعى بدر الدين، واسمه لؤلؤ، يصحبه إلى خارج الدار، وهناك خازنه معه صر الدراهم فيعطيه ما قدر له. ويحضر عنده في ذلك الوقت الفقهاء ويقرا بين يديه كتاب البخاري، فإذا صلى العشاء الأخيرة انصرف الناس عنه». (ابن بطوطة، ط1987/1م: 63)

وبعد أن تحدث ابن بطوطة عن الزوايا عموما، أشار إلى كيفية الطهارة الحسنة التي يضيفون بها ضيوفهم، ثم أشار إلى إكرام شيوخهم والتأدب معهم وتخاضعهم لهم، حيث أن أهل الزوايا لا يذهبون إلى المسجد إلا مع شيوخهم ذهابا وعبابا، يذكر الله عقب صلوات المفروضة كعادة أهل التصوف.

وفي هذا يقول: «يأتي باب الزاوية فيقف به مشدود الوسط، وعلى كاهله سجادة، وبيمينه العكاز، وبيسراه الإبريق. فيعلم البواب خديم الزاوية بمكانه فيخرج إليه، ويسأله من أي البلاد أتى، وبأي الزوايا نزل في طريقه ومن شيخه، (...) ومن عواندهم أنهم إذا كان يوم الجمعة أخذ الخادم جميع سجاجيدهم فيذهب بها إلى المسجد ويفرشها لهم هنالك. ويخرجون مجتمعين، ومعهم شيوخهم فيأتون المسجد، ويصلي كل واحد على سجادته. فإذا فرغوا من الصلاة قرأوا القرآن على عادتهم. ثم ينصرفون مجتمعين إلى الزاوية ومعهم شيوخهم». (ابن بطوطة، ط1987/1م: 57)

وشارك الرحالتان في وصفهما جانبا دينيا واسعا في مصر حتى كاد الباحث أن يقول إنها أوفر الجوانب ذكر في الرحلتين اللتين نحن بصدد دراستهما في هذا البحث. لذا اكتفينا بذكر ما انفرد كل من الرحالتين كما سجله بيرتون عن تحجب النساء والتميز بين علماء الأزهر والدرأويش وبما وصفه ابن بطوطة من إسلام فخر الدين القبطي وتمسكه بشرائع دين الإسلام مع الزوايا الصوفية وأذكرهم وحلقاتهم التعليمية وتأديبهم مع شيوخهم وإكرامهم ضيوفهم.

في الإسكندرية

نرتحل معا إلى الإسكندرية، وهي إحدى مناطق مصر التي زارها بيرتون. هنا وافق الرحالتان كلاهما في زيارة الإسكندرية ثم اختلفا على المشاهدات التي عاشها كل من الرحالتين، حيث اختلفت أوقات زيارتهما لهذه المدينة كما قال عنها بيرتون في رحلته: "دع الآخرين 8 يصفون لك الإسكندرية التي كانت ذات يوم عاصمة مصر المشهورة. إنها مدينة مقلوب كيائها" the city of misnomers أي المدينة ذات الأسماء المقلوبة... فصخورها التي يفترض أنها جافة دائمة مبتلة، ونافوراتها التي يفترض أنها عامرة بالمياه دائمة جافة". (بيرتون، 1994م: 23)

أما ابن بطوطة فتناول بالعكس الإسكندرية حيث وصفها في رحلته بأنها مدينة كبيرة من مدن مصر يسمع عنها القاسي والداني وقال: «هي الثغر المحروس والقطر المأنوس، العجبية الشأن الأصلية البنيان، بها ما شئت من تحسين وتحسين، ومآثر دنيا ودين، كرمت مغانيها ولطفت معانيها، وجمعت بين الضخامة والإحكام مبانيها، فهي الفريدة في سناها، والخريدة تجلى في حلالها، الزاهية بجمالها المغرب، الجامعة لمفترق المحاسن، بين المشروق والمغرب، فكل بديعة بها اجتلاؤها، وكل طريقة فإليها انتهؤها». (بن بطوطة، ط1987/1م: 34)

ثم انتقل بعد ذلك فوصف أبوابها، وعن أوقات فتحها وذلك في أسلوب مؤثر وعاطفة وخيال حاضر، وفي هذا يقول: «لمدينة الاسكندرية أربعة أبواب: باب السدرة وإليه يشرع طريق المغرب، وباب رشيد، وباب البحر، والباب الأخضر، وليس يفتح إلا يوم الجمعة، فيخرج الناس منه إلى زيارة القبور. ولها المرسى 9 العظيم الشأن ولم أر في مراسي الدنيا

مثله إلا ما كان من مرسى كولم وقالقوت ببلاد الهند، ومرسى الكفار بسرادق ببلاد الأتراك ومرسى الزيتون ببلاد الصين، وسيقع ذكرها. « (ابن بطوطة، ط1/1987م: 39)

يلاحظ الباحث أن الرحالتين تناولوا جانباً واحداً وهو وصف البيئة والعمران ولكن اختلف وصفهما حيث أجمل ابن بطوطة وصفه للإسكندرية كونه زارها قبل زيارة برتون، لما كانت ظروفها صحية، ولم يحسن برتون وصفها لما شاهد فيها من الصعوبات وتجفف النبات كما ذكر آنفاً.

كما يلاحظ الباحث أن الرحالتين وصفا الإسكندرية ولكن بطريقة مختلفة في محاور متباينة، فبيرتون زار الإسكندرية لما كانت قد فقدت جمالها الجذابة القديم بينما أعطى ابن بطوطة مميزات الفريدة التي جعلتها جنة الله في الأرض.

في مدينة المنورة

رحلا كلا الرحالتين إلى المدينة المنورة ووصفاها وما فيها. تبين صورة المدينة عند الرحالة البريطاني ريتشارد بيرتون الذي زار المدينة المنورة سنة 1853م، حيث تحدث عن المشاهدات التي رآها فيها. تمكن بيرتون من التسلل متكرراً إلى الديار الإسلامية المقدسة فزار عام 1853 المدينة المنورة ومكة المكرمة، ورسم المسجد الحرام بدقة فائقة. بلغت القافلة المدينة المنورة، وأقام بيرتون لدى أحد أصدقائه، وقد وصف بيرتون في رحلته المدينة المنورة وصفاً مفصلاً، وتناول بيوتها وعادات أهلها وبعض سماتهم الشخصية.

فيبدأ بالمحور الأول وهو وصف المدينة المنورة، والتي يُقسمها بيرتون إلى ثلاثة أجزاء: المدينة ذاتها، والقلعة، وضاحية المدينة، فيتحدث عن كل قسم من هذه الأقسام وما يتضمنه، فيصف سور المدينة وأبوابها، وقلعتها، ومنازلها وأحيائها، وأحواشها، ثم ينتقل إلى المحور الثاني وهو وصف المسجد النبوي، حيث ينقل الباحث لوجهة نظر بيرتون الناقدة لكل ما يتعلق بالمسجد من طبيعة البناء وما يتضمنه من معالم عمرانية في داخله، وأبنية محيطة به من الخارج، لينتقل بعد ذلك إلى المحور الثالث وهو يتركز على المجتمع المدني، فيتحدث عن سكان المدينة حيث يُشير إلى أشهر الأسر المدنية، وقيمتها الاجتماعية. (بيرتون، 1994م: 225)

ثم يذكر عدد سكان المدينة، ويتحدث عن أوضاعهم الاقتصادية ووظائفهم، مشيراً إلى الاتكالية التي كان يعيشها أهل المدينة على الأوقاف والمساعدات الخارجية، وينتقل بعد ذلك من خلال المحور الرابع للحديث عن تنظيم الموظفين في المسجد النبوي، من شيخ الحرم، والأغوات، والبوابين، وغيرهم، فيشير إلى طبيعة أعمالهم ورواتبهم ومستحققاتهم، وفي المحور الخامس يتحدث عن سلوك وعادات المجتمع المدني، فيشير إلى قناعاتهم التي توارثوها بأنهم شعب مميز عن غيره، ثم يتحدث عن ملابسه، وعاداتهم، وصفاتهم، وفي المحور السادس يتحدث عن الزراعة في المدينة، فيذكر أهم منتجاتها من التمور والفواكه، ويتكلم عن المياه وكيفية تأمينها، وأنواع الثروة الحيوانية المتوفرة داخل المدينة، وفي المحور السابع يُشير إلى الأوضاع الصحية والأمراض المنتشرة في المدينة، وأما المحور الثامن فيتحدث عن الحياة العلمية والدينية في المدينة فيذكر المدارس والدروس في المساجد. (بيرتون، 1994م: 226)

ثم ينتقل إلى الواقع الديني فيشير إلى انتشار الخرافات، وسعي سعود السلفي لمواجهتها، ليصل بعد ذلك إلى المحور التاسع وهو عن الوضع الأمني في المدينة حيث يتحدث عن صراع شهده بيرتون بين الحوامد والحوازم، وما نتج عنه من تغييرات في مسار رحلته، حيث يُشير إلى أن الوضع الأمني اضطره لسلوك طرق مختلفة للوصول إلى مكة، فيشير إلى هذه الطرق ويصفها. (بيرتون، 1994م: 227)

وأما عن الرحالة ابن بطوطة، فتوجه إلى المدينة المنورة في شوق ولهف شديد فيه. هذه المدينة التي نورها الله بنور وجه الرسول عليه السلام وعظمها بمسجده وشرفها بروضة من رياض الجنة، قال ابن بطوطة: «الحرم الشريف، وانتهينا إلى المسجد الكريم، فوقنا بباب السلام مسلمين، وصلينا بالروضة الكريمة بين القبر والمنبر الكريم، واستلمنا القطعة الباقية من الجذع الذي حن إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهي ملصقة بعمود قائم بين القبر والمنبر عن يمين مستقبل القبلة، وأدينا حق السلام على سيد الأولين والآخرين، وشفيع العصاة والمذنبين، النبي الهاشمي الأبطحي محمد صلى الله عليه وسلم تسليمًا، وشرف وكرم وحق السلام على ضجيعيه وصاحبيه أبي بكر الصديق وأبي حفص عمر الفاروق رضي الله عنهما». (ابن بطوطة، ط1/1987م: 128)

ثم أعاد النظر إلى المسجد النبوي مرة أخرى فأخذ يقيسه من جميع جهاته وينظر تحته وفوقه ومن جهاته، ليشهد القارئ هذا المشهد العظيم كأنه يراه بأم عينيه، وفي هذا يقول: «المسجد المعظم مستطيل، تحفه من جهاته الأربع بلاطات دائرة به، ووسطه صحن مفروش بالحصى والرمل، ويدور بالمسجد الشريف شارع مبلط بالحجر المنحوت. والروضة

المقدسة صلوات الله وسلامه على ساكنها في الجهة القبلية مما يلي الشرق من المسجد الكريم، وشكلها عجيب لا يتأتى تمثيله. ووهي منورة بالرخام البديع النحت الرائق النعت، قد علاها تضميخ المسك والطيب مع طول الأزمان». (ابن بطوطة، ط1987/1م: 129)

وأما الروضة الشريفة كان «في الجوفي من الروضة المقدسة، زادها الله طيبا، حوض صغير مرخم، وفي قبلته شكل محراب، يقال: إنه كان بيت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما، ويقال أيضا: هو قبرها، والله أعلم. وفي وسط المسجد الكريم دفة مطبقة على وجه الأرض، مقفلة على سرداب له مدرج يفضي إلى دار أبي بكر رضي الله عنه خارج المسجد». (ابن بطوطة، ط1987/1م: 130)

فالباحث يلاحظ خلال تناول الرحالتان الحجاز أنهما متفقان في زيارة المدينة المنورة، وتشابه حالهما لما في شغفهما بمدينة الرسول عليه السلام، حيث تكمن هذا الشغف العظيم المتمثل في المسجد النبوي الشريف وروضة الرسول صلى الله عليه وسلم. فكلاهما أفصلا القول في هذين المظهرين الجليلين متناولان كل ما يتعلق بها عن وصف العمران وسكان المدينة وعاداتهم وغير ذلك من الأمور. وكما افتتن الرحالتان بطيبة الرسول عليه السلام، قد كان مكة المكرمة لا تقل اهتماما لديهما حيث الكعبة المشرفة "بيت الله الحرام" كما سيتجلى ذلك فيما يلي.

في مكة المكرمة

لقد تشابهت غاية الرحالتين في الوصول إلى مكة المكرمة غير أن ابن بطوطة دافعه الرئيسي لرحلته هو لأداء الحج إلى الكعبة بينما بيرتون تنكر ودخل مكة متسللا ليطالع على ما عظم عند المسلمين؛ وهو مكة المكرمة وكعبة المشرفة قبله المسلمين ووقت الحج. قد شغف كلا الرحالتين منظر الكعبة المشرفة، وأفصلا في وصفه ما يكفي. ولما وصلت قافلة بيرتون مكة ليلا، كان عليه الانتظار حتى يبرز فجر ليرى المرة الأولى الكعبة المشرفة والمسجد الحرام. تلك كانت هي ذروة مطمح من كل تلك الرحلة المحفوفة بالأخطار.

وكتب بيرتون فيما بعد ما نصه: "أخيرا وصلت إليها، هي مطلبي الأول وهدفي النهائي من كل رحلتي المضنية وتخطيطي منذ سنين. رأيتها كتابوت ضخم تغطيه ظلال قاتمة، لكن كان هنالك من الخيال سراب يعطيها فتنة مميزة وسحرا خاصا. ليس فيها أو حولها شيء من بقايا آثار العصور القديمة كما هو الحال في مصر، وليس فيها بقايا من جمال آثار ورموز الجمال كما هو الحال في اليونان وإيطاليا، ولا بهاء (وهمجية) المباني في الهند. بالرغم من كل ذلك فقد كان منظرها غريبا ومتفردا. يا لقلعة أعداد من أداموا النظر في ذلك الضريح." (بيرتون، 1994م: 182)

تأثر بيرتون تأثرا لا حد له، ليس فقط بمنظر الكعبة، بل بالإخلاص والحب الشديد الذي يبديه الحاج. أدى ذلك الرحالة كل مناسك الحج المعقدة (حسب وصف الكاتب. المترجم)، وسجل بدقة كل طقوسها وتفاصيلها الدقيقة. قام أيضا بقياس طول وعرض الكعبة، ونفذ إلى داخلها، وقام برسم ما شاهده على حاشية ثوب إحرامه الأبيض. زار بيرتون كل الأماكن التاريخية المهمة في مكة وما حولها، وكتب بتوسع عن عادات وتقاليده سكان الحجاز.

وبعد ما أجاد ابن بطوطة الوصف البديع للمدينة المنورة في رحلته الحجازية واصل ابن بطوطة طريقه إلى مكة المكرمة حيث المسجد الحرام والكعبة المشرفة، ومقام إبراهيم عليه السلام وفي هذا يقول: «هي مدينة كبيرة متصلة البنيان مستطيلة، في بطن واد تحف به الجبال، فلا يراها قاصدها حتى يصل إليها. وتلك الجبال الملطة عليها ليست بمفرطة الشموخ. والأخشبان من جبالها هما جبل أبي قبيس، وهو في جهة الجنوب والشرق منها، وجبل قعيقعان، وهو في جهة الغرب منها، وفي الشمال منها الجبل الأحمر». (ابن بطوطة، ط1987/1م: 144)

اطلع الباحث على التقارب الذي بدى في وصف الرحالتين مكة المكرمة وخاصة بيت الله الحرام وكعبة المشرفة غير أن بيرتون انفرد بوصفه اهتمام الحاج المسلمين بالكعبة حيث كان برتون غير مسلم. ويبدو أن ابن بطوطة لم يهتم بما انفرد به بيرتون لأنه يعرف للكعبة مكانتها في قلوب المسلمين بخلاف الرحالة بيرتون.

خاتمة

ختاما وصل هذا البحث المعنون: "رحلة بيرتون ورحلة ابن بطوطة: دراسة مقارنة" نهايته؛ حيث تناول الباحث الرحالتين وكتابتهما بالدراسة. ثم تطرق الباحث جوانب اتفق فيها الرحالتان وهي مجموعة من الأماكن المتفقة عليها عند الرحلتين وتمثل ذلك في مصر والإسكندرية والمدينة المنورة ومكة المكرمة؛ حيث عمل الباحث مقارنة بين وصف الرحالتين تلك الأماكن. وقف الباحث أثناء هذه الجولة الرحلية على وجوه الاتفاق وما انفرد كل واحد من الرحالتين عن الآخر. ونتج عن هذا العمل المقارن معلومات قيمة ونتائج عدة أهمها:

- أن الرحالتين خرجا لهدف واحد وهو الوصول إلى بلاد الحرمين الشريفين، إلا أن ابن بطوطة كان مسلما وهدفه الحج بينما كان بيرتون غير مسلم وهدفه الاكتشاف؛
- الرحالتان يتفقان في زيارة مصر والإسكندرية ومدينة المنورة ومكة المكرمة ولكن في أونة المتفرقة مما جعل وصفهما لشيء واحد أحيانا تخلف تماما؛
- الرحالتان افتتتا ببلاد الحرمين الشريفين وشغفهما مميزاتا الفريدة المتمثلة في المسجد النبوي الشريف حيث يضم أشرف بقعة في العالم وهو الروضة الشريفة، وأم البلاد مكة المكرمة حيث بيت الله الحرام والكعبة المعظمة؛
- تبين للباحث أن رحلة ابن بطوطة كانت أوضح وأحسن وأدق وأجود من رحلة بيرتون حيث كانت رحلة ابن بطوطة بمثابة مصدر لرحلة بيرتون؛
- ويظهر للباحث التأثير والتأثر بين رحلة ابن بطوطة ورحلة بيرتون حيث تأثر الرحالة بيرتون في رحلته برحلة ابن بطوطة، كما كان ابن بطوطة أقدم الذي زار تلك البلدان قبل بيرتون.

المصادر

- ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد بن عبد الله: رحلة ابن بطوطة، دار صادر، بيروت، 1992م
- إميل يعقوب وبسام بركة ومي شيخاني قاموس المصطلحات اللغوية والأدبية: عربي-إنكليزي-فرنسي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الأولى 1997م
- التونسي، محمد بن عمر: الشذور الذهبية في المصطلحات الطبية، مخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس رقم 4641 - طبع منه الجزء الأول، 1965م
- جبور عبد النور، المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية، 1984م
- د. محمد غنيمي هلال، الادب المقارن، دار العودة، 5 ط بيروت 1981 (ط1 عام 1953م).
- الرافعي، عبد الرحمن، محمد فريد رمز الإخلاص والتضحية، الطبعة الرابعة، مصر، دار المعارف، 1984م
- رتشارد ف. بيرتون، رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز، ترجمة وتعليق د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1994م
- روايات غربية عن رحلات في شبه الجزيرة العربية، عبد العزيز عبدالغني إبراهيم، ج2، دار الساقى، 1880-1850م
- ريتشارد بيرتون - موسوعة الأعلام، خير الدين الزركلي، 1980م
- شوقي ضيف، الرحلات، دار المعارف، مصر، 1956م
- العفاني، سيد حسين: أعلام وأقزام في ميزان الإسلام، ج1، دار ماجد عسيري، 2004م
- فان تيجم، الادب المقارن، ترجمة دار الفكر العربي، القاهرة دون تاريخ
- ماريوس فرانسوا جويار: الادب المقارن، ترجمة د. محمد غلاب، مطبعة لجنة البيان العربي، بيروت 1956م
- الموافي، ناصر عبد الرزاق: الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، دار النشر للجامعات المصرية - مكتبة الوفاء، الطبعة الأولى، 1415هـ/1995م
- Dietrich Rauchenberger (1999): Johannes Leo der Afrikaner. Seine Beschreibung des Raumes zwischen Nil und Niger nach dem Urtext, Harrassowitz Verlag, S.
- Soucek, Svat, A History of Inner Asia (Cambridge University Press: 2000)
- James, Preston Everett. All Possible Worlds: A History of Geography .New York: Wiley, 1981.

الهوامش

- ¹ أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي. وكنيته أبو الحسن، ولقبه قطب الدين المسعودي (283~هـ - 346 هـ - 896~ / 957م) مؤرخ، جغرافي ورائد نظرية الانحراف الوراثي. من أشهر العلماء العرب. والمعروف بهيرودوتس العرب
- ² أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر المقدسي المعروف باسم محمد بن أحمد شمس الدين المقدسي أو المقدسي اختصاراً، هو رحالة مسلم ولد في القدس سنة 336هـ/947م، ونشأ بها احترفاً للتجارة فكثرت أسفاره حتى صار رحالة جغرافياً، وصنف كتاباً سماه "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم" وقد أكسبه شهرةً كبيرةً. توفي في سنة 380هـ/990م
- ³ اسمه الكامل (كما جاء في الوافي بالوفيات) هو: محمد بن محمد بن عبد الله. ولقب بالصفلي لأنه اتخذ جزيرة صفلية مكاناً له بعد سقوط الدولة الإسلامية. ولقب بسطرابون العرب نسبة للجغرافي الإغريقي الكبير سطرابون. وقد كان من أبرز الدارسين في علم الرياضيات. ولد في مدينة سبتة في المغرب الأقصى عام 493هـ/1100م ومات عام 559هـ/1166م
- ⁴ عبد الهادي التازي (مواليد 15 يونيو 1921 ، تازة - توفي 2 أبريل 2015 ، الرباط) سياسي وكاتب ومؤرخ مغربي. عضو بأكاديمية المملكة المغربية وعضو بجمع اللغة العربية بالقاهرة.
- ⁵ محمد بن أحمد بن عبد الله بن يحيى بن يوسف بن عبد الرحمن بن جزي الكلبي الغرناطي ولد يوم التاسع من ربيع الثاني عام 693 هـ في مدينة غرناطة عاصمة الأندلس آنذاك، وقُتل في معركة طريف الشهيرة التي دارت رحاها في الأندلس بداية شهر جمادى الأولى من عام 741 للهجرة، هو مؤلف وشاعر وخطيب ومؤرخ وفتية إسلامي عاش في نهاية القرن السابع الهجري
- ⁶ أبو عنان فارس بن علي (ولد بفاس سنة 1329) هو حاكم مربي. وقد خلف والده أبا الحسن علي بن عثمان كسلطان للمغرب سنة 1348 م . مات خنقا من قبل وزيره سنة 1358م.
- ⁷ حاجي كانجا مانسا موسى (توفي عام 1337م) أعظم زعماء امبراطورية مالي، ومن أشهر زعماء أفريقيا والإسلام في القرون الوسطى، خلف السلطان أبو بكر الثاني عام 1312م. كان عالما ورعا إلى جانب حنكته السياسية. في عهده ازدهرت جامعة سانكوري كمركز للعلم في أفريقيا.
- ⁸ نحو ابن بطوطة وصفها: مدينة عجيبة الشأن أصيلة المباني...
- ⁹ مرسى: مرسى (اسم) والجمع: مَراسٍ وهو اسم مكان من رسا / رسا على. هو ميناء، مَرَفَأٌ؛ مَحَلٌّ وقوف السفينة بالسَّاحل. معجم المعاني